اسم الدرس : تفسير سورة يس (٣) | الآيات [٢٤ : ٤٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسيـــر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

بإذن الله –عز وجل– نستكمل تفسير سورة ياسين، كنا قد توقفنا عند قول الله –عز وجل– على لسان مؤمن آل ياسين: {وَمَا لِيَ لَآ أَعبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدنِ ٱلرَّحمَٰنُ بِضُرّ لَّا تُغنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُم شَيـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذا لَّفِى ضَلَٰل مُّبِينٍ * إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُم فَٱسمعون * قِيلَ ٱدخُلِ ٱلجَنَّةَ}[يس:٢٢-٢٥].

ذكرنا في المرة الماضية ما ينبغي على الدعاة أن يفعلوه في وقت اشتداد الظلمات، وإذا عملوا أو دعوا إلى الله –عز وجل– في مكان طال عليه الأمد بعيدًا عن النذارة، أي :عندما يعمل الفرد في الدعوة في مكان ظل مدة لم يدعو فيه أحد إلى الله –عز وجل، فينبغي له أشياء معينة من أهمها:

بدايةً؛ الثقة أنهم على الحق، لأن غالب الذين حولهم سيشككون في كلامهم، فلا بد أن يكونوا على يقين، حتى لا يهتز الإنسان من أي شبهة تقع عليه، أو لكي لا يصاب بإحباط من كثرة المعرضين عنه.

وأيضًا؛ قلنا: لا بد أنه يكون هناك تعاون بين الدعاة في هذا الوقت، فقال الله –عز وجل–: {فَعَزَّزنَا بِثَالِث}.

أيضًا؛ الشفقة والحرص على الناس، وهذا الذي يوجد في قول الله –عز وجل– على لسان مؤمن آل ياسين: {وَمَا لِيَ لَآ أَعبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى} إلى أن قال: {قِيلَ ٱدخُلِ ٱلجَنَّةَ}.

وقلنا عندما جاء مؤمن آل ياسين وكان عنده الذاتية {وَجَآءَ مِن أَقصَا ٱلمَدِينَةِ رَجُل يَسعَىٰ}، وتكلمنا أن الله –عز وجل– لم يذكر اسمه، ولكن ذكره بوصفه وبذله وفعله وخلّد الله –عز وجل– ذلك. وذكرنا سبب قوله: {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} وتكرار كلمة (اتبعوا) مرة أخرى {تَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا}[يس:٢١]؛ بحيث إن غاب المرسلون أنت تتبع الدعاة ولا تتبع المرسلين فقط، فإذا غاب المرسلون أو ماتوا أو قُتلوا، هل يتوقف الإنسان عن السير في طريق الله؟ لا؛ بل يسير خلف الدعاة. ثم ذكر علامات صدق الدعاة التي هي: {مَن لَّا يَسئَلُكُم أَجرا وَهُم مُّهتَدُونَ} فهم يُطبقون فعلًا ما يقولون.

ثم بدأ –ونحن سنبدأ من هنا– الآيات، ثم قال: {وَمَا لِيَ لَآ أَعبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ}[يس:٢٢]

قلنا: في ظل اشتداد الظلمات وانتشار الضلال –وفي أي وقت آخر– كلام الداعية يؤثر حينما يشعر به، فالكلام الذي

يقوله لا يَتكلفه أو يمثله، بل يُعانيه ويُعايشه، فهو بالفعل عاش هذه اللحظات وعاش هذه المعاني، لذلك هنا تكلم عن نفسه يقول: {وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي}! وكأن هذا السؤال مركوز داخل كل إنسان، لماذا لا أعبد الذي خلقني؟ لماذا لا تكون لي صلة بيني وبين خالقي موجدي الذي أوجدني؟ هذا السؤال مركوز في فطرة كل إنسان، وكأنه عندما يقول هذا –مؤمن آل ياسين– فهو يستدعي هذا السؤال الذي تناسوه! الإنسان يتناسى هذا السؤال؛ أنه توجد علاقة بينك وبين الذي خلقك، أنت كيف أتيت إلى هنا؟! وما هذه العلاقة؟ وما الذي ينبغي عليك فعله؟ إلى أين ستذهب بعد الموت؟ أسئلة مركوزة داخل الفطرة الإنسانية.

يحاول أهل الضلال دائمًا أن يأتوا بإجابات مشوهة، أو يحاولون تناسي هذه الأسئلة، وما الإلحاد إلا هروب من هذه الإجابات! فالإلحاد لا يقدِّم إجابات على هذه الأسئلة. الإلحاد لا يقول أنت جئت عن طريق كذا، وبعد ما تموت سيحصل كذا، وكل الخلق والسماء... هو ليس لديه إجابات! ويحاول الهروب من هذه الأسئلة، لذلك لما قال الله –عز وجل– {لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ}[القيامة:١-٢] من علامات يوم القيامة أن النفس تلوم، وكأن هذه إشارة أنه هناك يوم القيامة يُلام فيها الإنسان على فعله، وهم يريدون قتل هذه النفس اللوامة: {لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ * بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ} لا يريد أن يلوم نفسه، يريد أن ينطلق بفجور –والفجور: انفجار وانطلاق– بدون أن يقول له أحد كلمة "حرام"، لا يريد أن يسمع كلمة "لا"، يريد أن ينطلق بدون أي عوائق –كما يظنها–.

فهنا في قول الله –عز وجل–: {وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ} استثارة لهذه التساؤلات التي ممكن أن يتناساها الإنسان. وهذا يتضمن طريقة الدعوة؛ ألا تواجه، فهو لم يقل لهم "وما لكم لا تعبدون الذي فطركم"، بل يتكلم عن نفسه: {وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي}، بحيث أن الضعفاء المخدوعون الذين لا يمشون وراءهم ابتغاء مصالح، بل يتبعوهم اتباعًا أعمى، سيبدأ بسؤال نفسه: وأنا

أيضًا لماذا لا أعبد الذي فطرني؟ وأنا من الذي فطرني؟ وأنا من الذي خلقني؟ وهل الذي خلق يترك؟ ويبدأ يستثير هذه التساؤلات.

قلنا: دائمًا في جو الظلمات؛ إلقاء هذه التساؤلات تهز الضلال، مثلما فعل سيدنا إبراهيم في سورة الصافات، وأيضًا مثلما تكلمنا من قبل بالتفصيل في سورة الأنعام. هذه التساؤلات تجعل العقل يفكر، تزيل هذا الركام الذي صنعته تقاليد الآباء والأجداد، يبدأ يفكر: هل نحن نسير خطأ! وما هو الدليل؟ هل نحن نسير على الصواب؟ {قَلَ أَوَلَو جِئتُكُم بِأَهدَىٰ مِمَّا وَجَدتُم عَلَيهِ ءَابَآءَكُم}[الزخرف:٢٤]، اطّلع في الهداية الموجودة، هل هؤلاء رسل؟ لماذا

ضحوا بأنفسهم؟ هل طلبوا أجر؟! لا لم يطلبوا أجر؟ استثارة هذه التساؤلات تجعل الإنسان يفكر ويسير في طريق الحق إن أذن الله -عز وجل- له بذلك.

فقال: {وَمَا لِيَ لَآ أَعبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى} وذكر الفطرة التي مهما حاول أهل الضلال أن يطمسوها فهي موجودة، وبمجرد هذه الاستثارة والاطلاع على بعض الأدلة يعود الإنسان إلى رشده مرة أخرى.

ثم قال: {وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ} خاطبهم مرة أخرى كأنه يقول لهم: ما تكلمت فيه عن نفسي أنا أعنيكم به {وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ} وخاطبهم بما لا ينكرونه. لم يواجههم بما ينكروه، والذي هو مسألة {وَمَا لِيَ لَآ أَعبُدُ...}. فيقول لهم {وَإِلَيهِ تُرجَعُونَ}: ستموتون، كلكم متفقين على أنكم ستموتون، وأنا أخبركم أنكم بعد الموت سترجعون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تكلم عن نفسه مرة ثانيةً، يستنكر: {ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً}[يس:٢٣] يقول لهم: أنتم تعترفون بوجود إله، لماذا تبحثون عن آلهة أخرى؟، لأنهم في البداية قالوا: {وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحمَٰنُ مِن شَىءٍ}[يس:١٥] اعترفوا أنه يوجد رحمن لكنهم قالوا: إن الرحمن لم ينزل شيئًا! فهنا يقول لهم: {ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً}، أيعقل أن أبحث عن آلهة أخرى، لماذا؟! {إِن يُرِدنِ ٱلرَّحمَٰنُ بِضُرٍ..} أنتم قلتم أنه الرحمن! أي أنهم صوروا للعامة أن كلام الرسل يتنافى مع رحمة الله -عز وجل-، {وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحمَٰنُ مِن شَىءٍ} وزعموا أنه مستحيل أن يرسل الرحمن رسلًا وتقول بوجود عقاب، لا، لا، هذا كلام متشددين! من المستحيل أن يكون هذا من الرحمة!

فهنا ذكر مؤمن آل ياسين اسم (الرحمن) ليبين أن الرحمن قد يقدّر أقدارًا حتى لو فيها ضر بالنسبة للإنسان لكنها لخير له، وأن (الرحمن) قد يُعاقب الإنسان إذا مات على الضلال، وهذا رحمة للمؤمنين. فلا يُعقل أن يسوّي المَلِكُ -سبحانه وتعالى وهو لا يظلم أحدًا- بين المسلم والكافر {أَفَنَجعَلُ ٱلمسلِمِينَ كَٱلمجرِمِينَ * مَا لَكُم كَيفَ تَحكُمُونَ}[القلم:٣٥-٣٦]. حاشاه -سبحانه وتعالى- ولكن تخيل إن جاء المسلم يوم القيامة ووجد الكافر يُنعم مثله تمامًا! المسلم يُقهر! فهذا لا يوجد به رحمة للمسلم! ومن رحمة الله -عز وجل- بالمؤمن والمسلم أن الكافر يُعذب، وألا يُسوَّى بين المؤمن والكافر. فقال: {إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ}، يذكر لهم استدلال مشهور جدًا والذي نسميه "تعارض الإرادات": أنتم الآن متخذين آلهة، حسنًا؛ نفترض أن الله الرحمن أراد شيئًا وهذا الشيء ضُرّ بالنسبة لي، هل تستطيع هذه الآلهة أن تمنع هذا الضرّ؟!

هذه الأسئلة البسيطة تستثير عقل الإنسان، مثلما يُروى في الآثار، سأل النبي ﷺ رجلًا، قال: (كم تعبد؟، قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: حينما تمر الأرض بجدب أو تحتاج إلى رزق من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: عندما تكون في منتصف البحر وتعلو الأمواج من تسأل؟ قال: الذي في السماء، قال: إذًا والباقي ما فائدته؟ إذًا؛ اعبد الذي في السماء!)[1].

فهنا يقول -مؤمن آل ياسين-: لماذا أنت تتخذ آلهة أخرى؟ ماذا تفعل لك الآلهة الأخرى؟ إن أرادني الرحمن بضر هل الآلهة الأخرى تلك ستشفع؟! لا، لن تشفع. ستنقذني؟! لا، لن تنقذني. أي أنها لا تتدخل بالكلام ولا بالفعل! لذلك يقول: {لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا}، فالشفاعة لن تفعل شيئًا {وَلَا يُنقِذُونِ} ولا بالفعل ستفعل شيئًا. {لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ}[يس:٢٣]. فيقول لهم عندما تتعارض الإرادات، عندما يريد الله شيئًا ويريد الخلق كلهم شيئًا؛ تمضي إرادة الله- عز وجل-. وهذا هو نفس الدليل عندما -تعالى الله عز وجل عما يقولون- قال النصارى اتخذ الله ولدًا!

---

[1] [عن عمران بن الحصين:] قال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي حُصَينٍ: كم تعبُدُ اليومَ مِن إلهٍ؟ قال: سبعةً؛ سِتَّةٌ في الأرضِ، وواحدٌ في السَّماءِ، قال: فأيُّهم تُعِدُّ لرهبتِكَ ولرغبتِكَ؟ قال: الَّذي في السَّماءِ، قال: أما إنَّكَ لو أسلَمتَ علَّمْتُكَ كلمتَيْنِ تنفعانِكَ، قال: فلمَّا أسلَمَ حُصَيْنٌ أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، علِّمني الكلمتَيْنِ اللَّتينِ وعَدْتَنيهما، قال ﷺ: قُلِ: اللَّهمَّ ألهِمْني رُشْدي، وعافِني مِن شَرِّ نَفْسي.
البيهقي (ت ٤٥٨)، الأسماء والصفات ١٦٥/٢ • [له متابعة] • أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، والبزار (٣٥٨٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٩٤) واللفظ له.

فربنا يقول لهم: {قُل فَمَن يَملِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيئًا إِن أَرَادَ أَن يُهلِكَ ٱلمَسِيحَ ٱبنَ مَريَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلأَرضِ جَمِيعا}[المائدة:١٧] إن أراد الله أن يهلك المسيح، هل المسيح سيمتنع؟، بل إرادة الله سوف تمضي، بل يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا!

إذًا؛ هو إله واحد، لا يصلح أن يكون هناك أكثر من آلهة. لا إله إلا الله وحده لا شريك له –سبحانه وتعالى–، تعالى الله عز وجل عما يقول النصارى علوًا كبيرًا.

"لا إله إلا الله"، لا شفعاء ولا شركاء عنده سبحانه وتعالى فيقول: {لا تُغنِ عَنّي شَفاعَتُهُم شَيئًا وَلا يُنقِذونِ}[يس:٢٣]. لا يوجد أحد يستطيع أن ينقذني {إِنّي إِذًا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ}[يس:٢٤]. لو أنني سمعت كلامكم بعدما تبين لي الحق وعدت إلى فطرتي وعلمت أن الله واحد، إن سمعت كلامكم ف{إِنّي إِذًا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ}.

ثم أعلنها مدوّية بحرف التأكيد "إني" لست خائف! يقول: {إِنّي آمَنتُ}، وهنا الخطاب قال: {إِنّي آمَنتُ} بماذا؟ قال: {بِرَبِّكُم}، ولم يقل "إني أمنت بربي"، بل قال: {إِنّي آمَنتُ بِرَبِّكُم}.

فيجب عليكم أن تفعلوا مثل ما فعلت! قف مع نفسك واسأل نفسك الأسئلة التي سألتها لنفسي: هل هؤلاء مرسلون؟ نعم هم مرسلون. هل معهم حق؟ أجل، معهم حق. هل يطلبون أجرًا؟ لا يطلبون أجرًا. هل هم مهتدون؟ نعم، يطبقون ما يقولون. ثم حينما يعود الإنسان إلى الفطرة، يسأل: من الذي خلقك؟ هل هؤلاء الآلهة شفعاء؟ هل تفعل أي شيء؟ لا تفعل أي شيء.

بعد سلسلة التساؤلات هذه، تصل إلى أنك لا بد أن تقول "إني آمنت بربي"، فقال: {إِنّي آمَنتُ بِرَبِّكُم فَاسمَعونِ}[يس:٢٥]، وكأنه ينادي! وهي أصلها "فَاسمَعوني" وحذفت الياء {فَاسمَعونِ}. لكن لماذا ينادي: {فَاسمَعون}؟ هو يكلم مَن؟

قيل: يكلم الرسل، يقول لهم: اشهدوا لي عند ربي أني آمنت، وكأنه يشعر بدنو أجله، ويعلم أنهم لن يتركوه، وسيقتلونه، فيقول للرسل: اشهدوا لي عند ربي أنني قلت كلمة الحق ونصرتكم ونصرت دين الله.

أو {فَاسمَعون}: ينادي على قومه: أنا لا أخاف منكم. وأعلنها صريحةً مدوية "لا أخاف".

أو قيل: {فَاسمَعون} لكل بعيدٍ، كما كان هو في أقصى المدينة وهداه الله، يريد أن يصل صوته إلى كل العالم، كما أن الله عز وجل جاء به من أقصى المدينة وبلغه الهداية وهو في أقصى المدينة.

فكلمة {فَاسمَعون} يريد أن يصل صوته إلى كل الناس، يريد أن ينتزع كل المستضعفين والضعفاء والمغفلين والجاهلين؛ ينتزعهم من سطوة هؤلاء المستكبرين، فيقول لهم: اسمعوا كلامي ولا تسمعوا كلامهم هؤلاء، لن ينفعوكم بشيء! فيصرخ ويقول: {فَاسمَعون} يريد أن يعلن إيمانًا، في هذه اللحظات إعلان الإيمان خطر، ولكنه اختار هذا الإعلان.

في أوقات معينة كلمة الحق تكون غالية، وخاصة عندما يكون الذي يقول كلمة الحق من وسط قوم الضُلال، ويخرج منهم ويقول كلمة الحق، فتكون كلمة ثقيلة عليهم ولا يستطيعون أن يسمعوها لأنه منهم! فحينما يكون قائل هذه الكلمة من قومهم؛ معنى ذلك أن الإيمان سينتشر في القوم، فهم يخافون من ذلك.

لذلك لما قال الله عز وجل أن بعض النصارى أقرب مودة للمؤمنين من اليهود والمشركين، وقال السبب: {ذلِكَ بِأَنَّ مِنهُم قِسّيسينَ وَرُهبانًا}، ثم قال: {وَأَنَّهُم لا يَستَكبِرونَ}، ولكن ماذا كانت تكملة هذه الصفات؟ {وَإِذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسولِ}...

تخيل! عندما يكون هناك قسيس -أو راهب- وكان من النصارى ويعيش وسطهم لسنوات، ثم يسمع القرآن {وَإِذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسولِ تَرى أَعيُنَهُم تَفيضُ مِنَ الدَّمعِ مِمّا عَرَفوا مِنَ الحَقِّ يَقولونَ}[المائدة:٨٣]، لم يكتفي بالتأثر بالمعنى، لم يسمع القرآن ويبكي وفقط! قال الله عز وجل: {وَإِذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسولِ تَرى} هذا هو التأثر {ترى أَعيُنَهُم تَفيضُ مِنَ الدَّمعِ مِمّا عَرَفوا مِنَ الحَقِّ} ولكنهم أتبعوا التأثر بماذا؟ بالقول {يقولونَ رَبَّنا آمَنّا فَاكتُبنا} مع مَن؟ {مَعَ الشّاهِدينَ}[المائدة:٨٣] يريد أن يكون من الذين يشهدون لهذا الدين! وهي نفس الكلمة! وكأن {فَاسمَعون} يكلم الرسل، اكتبوني مع الشاهدين علَّ الله أن يكتبني من الذين شهدوا لهذا الدين، فشهد فمات شهيدًا، فلما قالوا {رَبَّنا آمَنّا فَاكتُبنا مَعَ الشّاهِدينَ} قالوا: {ومَا لَنَا} وهو نفس كلام مؤمن آل ياسين: {ومَا لِيَ لَا أعبُدُ}!

قالوا: {وما لَنا لا نُؤمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الحَقِّ وَنَطمَعُ أَن يُدخِلَنا رَبُّنا مَعَ القَومِ الصّالِحينَ * فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما}[المائدة:٨٤-٨٥] بماذا؟ {بِما قالُوا} وليس "بما عملوا". ولكنها تأتي دائمًا {آمنوا وعملوا الصالحات} ولكن هنا {قالوا} لأن القول غالي! وكأنهم أيضًا قتلوا، لأنهم حينما قالوا:

{ما لَنا لا نُؤمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الحَقِّ وَنَطمَعُ أَن يُدخِلَنا رَبُّنا مَعَ القَومِ الصّالِحينَ* فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالوا جَنّاتٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهارُ} دخلوا الجنة.

{فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالوا}. الشهادة بكلمة الحق في هذا الوقت غالية. لأنه منهم وأسلم، مثل مؤمن آل ياسين، وأيضًا هؤلاء القسيسين الذين أسلموا، ومثل كلمة مؤمن آل فرعون وأرادوا أن يمكروا به وأن يقتلوه. كلمة الحق لما يكون الإنسان من داخل أهل الضلال ثم يُسلم؛ كلمته تكون غالية جدًا، ويترتب عليها أنه لا بد أن يمكروا به، فقد ينقذه الله عز وجل وقد ينال الشهادة.

فلما قال: {فَاسمَعون} ونادى بأعلى صوته، ماذا قال الله عز وجل؟ {قيلَ ادخُلِ الجَنَّةَ}[يس:٢٦] أجمع المفسرون أن قومه قتلوه، وقيل قتلوه ضربًا بالرجم بالحجارة، وقيل ظلوا يضربونه حتى مات. الشاهد؛ أن قومه قتلوه ومات شهيدًا في سبيل الله عز وجل.

هنا أمر عجيب في القرآن؛ أن الله لم يذكر لنا مشهد القتل، ماذا قال الله تعالى؟ قال: {إِنّي آمَنتُ بِرَبِّكُم فَاسمَعونِ * قيلَ ادخُلِ الجَنَّةَ} وكأن ما بين لذة الإعلان بالإيمان ولذة التحليق في الجنان –لأن الشهيد تحلق روحه في أجواف طيرٍ تحلق في الجنة– بينهما ألم! فيذوب الألم ويضيع الألم؛ ألم التعب لنصرة الدين كأنه يُنسى وكأنه يُمحى كأنه لم يكن موجودًا.

هذا المشهد لم يُذكر، بل حتى هذا الألم يشعر به الشهيد كألم لدغة الحشرة، فكأن هذا المشهد لا يجب أن تستغرق فيه كثيرًا، بل فكر في مشهد إعلان الإيمان ومشهد التنعم في الجنان، لا تتوقف مع هذا المشهد؛ مشهد الألم الذي مر به، لا تتوقف معه كثيرًا فتحجم عن النطق بكلمة الإيمان، وأيضًا لا تتفكر فيه كثيرًا فتكره قومك، لأنه لما حذف هذا المشهد قال: {يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ}.

لا تقف مع هذا المشهد كثيرًا حتى لا تكره قومك، وحتى لا تخاف من هذا المشهد، فحذف هذا المشهد وكأنه ليس موجودًا. فما بين الإعلان بالإيمان والتحليق بالجنان ألمٌ يذهب طي النسيان، ولا يتذكره الإنسان، ومع أول غمسة في الجنة يسأله الله عز وجل: (هل ذقت بؤسًا قط، فيقول: لا، والله يا رب)[٢] ، فينسى ولا يتذكره! وتمحى هذه الآلام بين اللذتين؛ لذة إعلان الإيمان والشهادة لنصرة الدين الله عز وجل. فشهد لله فمات شهيدًا.

[٢] [عن أنس بن مالك:] يُؤتى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيا مِن أهْلِ النّارِ يَومَ القِيامَةِ، فيُصْبَغُ في النّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ ويُؤْتى بأَشَدِّ النّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيا، مِن أهْلِ الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ.

ومن معاني الشهيد: أنه شهد لهذا الدين حتى مات فاستحق الشهادة، أن يأتي يشهد لأنه شهد لهذا الدين.

وقيل: شهيد لأنه يشهد نعيم الجنة مباشرةً بمجرد موته: {إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُم فَاسمَعونِ قيلَ ادخُلِ الجَنَّةَ}.

ومن العجيب حرصه على إيمان القوم! انظر الحلم! انظر حب الناس! {قالَ يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ}، فنصحهم حيًا وميتًا. هذا المطلوب في زمن انتشار الضلال؛ الحلم على الناس، وحب الهداية للناس، ومهما آذاك الناس لا بد أن تصبر وأن تحلم عليهم مهما حصل، إلى آخر وقت، إلى أن يُقدّر الله عز وجل عقوبته.

فقال: {قالَ يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ} يا ليتهم يعرفون الذي حدث.

والعجيب أنه أيضًا يقول: {بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ المُكرَمينَ}[يس:٢٧] بعد كل الذي عمله يحتاج الإنسان إلى المغفرة، وحتى لا يستكثر الإنسان ما قدمه لدين الله عز وجل: { وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ}[المدثر: ٦].

فقال: {يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ * بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ المُكرَمينَ} يا ليتهم عرفوا الذي حدث لي حتى يتوبوا إلى الله عز وجل، يا ليتهم رأوا الجنات! يا ليتهم رأوا النعيم حتى يتوبوا إلى الله عز وجل {بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ المُكرَمينَ}.

ثم قال الله عز وجل: {وَما أَنزَلنا عَلى قَومِهِ مِن بَعدِهِ مِن جُندٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنّا مُنزِلينَ}[يس:٢٨] كأنهم لا يستحقون أن ينزل الله عز وجل جنود حتى يميتهم، فهم لا يستحقون أن ربنا ينزل جنود يعاتبوهم،

لا، كانت صيحة فقط، هم أحقر من أن ينزل عليهم ربهم جنود!

تأمل كلمة {وَما أَنزَلنا عَلى قَومِهِ مِن بَعدِهِ} لحظة قتلهم له؛ استحقوا العقاب. كأن الأقوام يمكن أن ترتكب معاصي كثيرة، لكن عندما يرتكبون معصية معينة يستوجبون بها نزول العذاب، أو يستكملوا بهذه المعصية النصاب الذي ينزل عليهم العذاب.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨٠٧ • [صحيح]

فكان هذا الرجل غالٍ عند الله، فلما قتلوه استحقوا العذاب، وكأنهم لو لم يقتلوه، لم يكن لينزل عليهم العذاب. فأحيانًا يتعجل الأقوام العذاب بقتلهم لأهل الإيمان. يستعجل نزول العذاب عن طريق ماذا؟ أن يقتل أهل الإيمان أو يعذب أهل الإيمان. فكلما زاد قتل أهل الضلال لأهل الإيمان؛ كلما استعجلوا نزول العذاب عليهم. فقال: {وَما أَنزَلنا عَلى قَومِهِ مِن بَعدِهِ مِن جُندٍ مِنَ السَّماءِ} هم لا يستحقون أن تنزل عليهم الملائكة، هم أحقر من ذلك.

{وَما كُنّا مُنزِلينَ} قيل لن ينزل مثل العذاب الذي نزل على الأقوام سابقًا، لن تنزل حجارة من السماء، بل هي مجرد صيحة بدون ما ينزل أحد {إِن كانَت إِلّا صَيحَةً واحِدَةً}[يس:٢٩]، وكلمة {واحِدَةً} أي: لن يفلت أحد! وليس مثلا: تأتي صيحة واحدة فيموت ثلاثة أرباعهم، ثم تأتي صيحة أخرى فيموت أغلبهم، ثم صيحة ثالثة، وهكذا حتى يموت الباقي ممن هرب...لا... لا... بل صيحة واحدة تكفي، والكل يموت، ولا يخرج أحد عن طوعه سبحانه وتعالى.

{إِن كانَت إِلّا صَيحَةً واحِدَةً فَإِذا} فإذا: يسمونها (إذا الفجائية). {فإذا هُم خامِدونَ} {خامدون} تأتي مع النار، فبعد أن كانوا مشتعلين وأصحاب قوة وعتاد، ويقولون: من أشد منا قوة، ويقول: أنا ربكم الأعلى.. أين هم الآن؟! {هَل تُحِسُّ مِنهُم مِن أَحَدٍ أَو تَسمَعُ لَهُم رِكزًا}[مريم:٩٨] ماتوا!

{فَإِذا هُم خامِدونَ}، انظر إلى منظر الرماد بعد أن كان نارًا، تحرق، وتشتعل، ويخاف منها الناس، أصبحت رماد، فهذه نهاية أهل الضلال! ((**على ماذا يتكبر الإنسان! فهذه هي النهاية، على ماذا يتكبر الإنسان؟**))، عندما تأتي جلطة إلى الإنسان في شريان ضيق جدًا تجعله ينام على سرير، ولا يتحرك، فعلى ماذا يتكبر الإنسان!

فقال الله عز وجل: {إِن كانَت إِلّا صَيحَةً واحِدَةً فَإِذا هُم خامِدون * يا حَسرَةً عَلَى العِبادِ}، لماذا ينتظر الناس أن يذوقوا العذاب حتى يصدّقوا؟!، لماذا ينتظر الإنسان أن يرتكب المعصية ويُعاقَب حتى يُصدِّق!؟، لماذا ينتظر أن يذوق حتى يُصدِّق: أنَّ ربَّنا حق، وأنزل الرسل بالحق، وأنزل معهم الحق والبينات؟!، لماذا يريد الأقوام أن تجرِّب؟، لماذا يريدون أن يعيشوا في ضلال وضنك حتى يصدِّقوا؛ أنَّ الذي سيبتعد عن ربِّنا سيعيش في ضلال وضنك!، {يا حَسرَةً عَلَى العِبادِ ما يَأتيهِم مِن رَسولٍ إِلّا كانوا بِهِ يَستَهزِئونَ}[يس:٣٠]

أول شيء يفعله: الاستهزاء بالرسل، لماذا؟، بدلًا من أن يحتفيَ بالرسول المرسَل من الله، والرسالة التي من عند الله، من المفترض أن نحتفيَ بالرسل، ونفرح بهم لأنهم جاءوا بالحق من عند الله كما يقول الله تعالى: {جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورَ}[يونس:٥٧]، {قُل بِفَضلِ اللَّهِ وَبِرَحمَتِهِ فَبِذلِكَ فَليَفرَحوا}[يونس:٥٨]، يجب علينا أن نفرح لأنّ ربنا أرسل لنا رسالة، {يا حَسرَةً عَلَى العِبادِ ما يَأتيهِم مِن رَسولٍ إِلّا كانوا بِهِ يَستَهزِئونَ}.

{يا حَسرَةً عَلَى العِبادِ} قيل: يقول هذه الكلمة: كل مؤمن حينما يسمع هذه الآيات، وكأن كل مؤمن يقرأ هذه الآيات يجب أن: يتحسر على العباد؛ لماذا يفعلون في أنفسهم ذلك!؟ وكأن هذا مثل كلمة {يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ}، أيضا استمرار في معنى الحلم، والرأفة بالناس {يا حَسرَةً عَلَى العِبادِ}، لماذا يفعل الناس في أنفسهم ذلك؟ لماذا يبعد الإنسان عن ربنا؟ هذا الخطاب هو الذي يجب أن تخاطب به الناس، لما تختار البعد عن ربنا؟ لماذا تختار طريق المعصية؟ {فَما ظَنُّكُم بِرَبِّ العالَمينَ}[الصافات:٨٧] لماذا تسيء الظن بالله؟ لماذا تبتعد عن الله عز وجل؟

{يا حَسرة} وقيل: يقول ذلك الكفار: يتحسرون على أنفسهم. وقيل: يقول ذلك الرسل حينما رأوا العذاب.

{يا حَسرَةً عَلَى العِبادِ ما يَأتيهِم مِن رَسولٍ إِلّا كانوا بِهِ يَستَهزِئون}[يس:٣٠] أي: معظم الناس تبدأ بالتكذيب أولًا.

ثم بدأ شوط عظيم من الآيات الكونية، التي تجعل الإنسان إذا تدبر فيها؛ عاد إلى فطرته. فكأن إذا دنَّس الإنسان فطرته فعليه أن يرجع إلى الكون، فهو –الكون– لم يُدنَّس بعد، فليتدبر في الكون. إذا وجد الإنسان أن فطرته تشوَّهت، ولا يستطيع أن يتفكر ويتأمل في خلقه وفي حياته؛ فليرجع إلى الكون، فهو –الكون– باقٍ على فطرته.

{أَلَم يَرَوا} بدأ أولا بإهلاك المكذبين –الذين كذبوا الرسل– {أَلَم يَرَوا كَم أَهلَكنا قَبلَهُم مِنَ القُرونِ أَنَّهُم إِلَيهِم لَا يَرجِعونَ}[يس:٣١] كم كبير من القرون التي أهلكها ربنا، ثم لا يعودون بعد موتهم، لا يعودون إليكم، {أَنَّهُم إِلَيهِم} أي: إلى أقوامهم، {لَا يَرجِعونَ}. مثال: عندما يسير الحيوان في طريق خلف حيوانٍ آخر، ويسقط الحيوان في فخ، يخاف الحيوان الذي قبله أن يُكمِل الطريق، هذا شيء

موجود حتى في فطرة الحيوانات، يخاف ويقول لك: لا أريد أن أسير في هذا الطريق؛ لأن هناك حيوان مشي من قبل في هذا الطريق، ووقع في فخ، فهذا شيء لا يحتاج إلى عقل.

الإنسان.. هناك قبله من مشي في طريق المعصية، وربنا أهلكه، فكيف لك أن تسير في الطريق نفسه؟ وماذا عن آثار المهلَكين التي توجد في العالم؟ أين هم الآن؟ أهلكهم الله عز وجل، وهذه آية حسية!، ألم تر آثار المهلكين؟! يمرون عليها بالليل، وبالصباح، وبالرغم من ذلك يختارون طريق الضلال {أَلَمْ يَرَوا كَم أَهلَكنا قَبلَهُم مِنَ القُرونِ} أين هم؟ {أَنَّهُم إِلَيهِم لا يَرجِعونَ * وَإِن كُلٌّ لَمّا جَميعٌ لَدَينا مُحضَرونَ}[يس:٣١-٣٢] ليس معنى أنّهم لن يرجعوا إلى الدنيا؛ أنهم ماتوا وانتهى الأمر! ليس الأمر كذلك! سيرجعون إلى ربنا حتمًا، مثل: كلام مؤمن آل ياسين في قوله تعالى {وإليه ترجعون}. لذلك قال ربنا: {وَإِن كُلٌّ لَمّا جَميعٌ} يقول العلماء: ما الفرق بين كلمة (كل) و(جميع)؟ هل هي المعنى نفسه؟ قالوا: لا، (كلٌ): تعني أنّه لن يفلت أحدٌ، و(جميع): تعني أنهم سيتجمعون مع بعضهم البعض، وليس الأمر كما يُظَنّ أن: الله سيبعث أقوامًا، ثم يبعث أقوامًا آخرين بعد فترة، بل الناس كلهم سيُبعَثون في وقتٍ واحدٍ، هذا الجمع مشهد مهيب. ((تخيّل)) مليارات البشر من لدن آدم إلى يوم القيامة سيُبعَثون في وقت واحد، لا يتخلف عنه أحدٌ -سبحانه وتعالى-، بصيحة واحدة الكل يُجمع في وقت واحد، لا يتخلف أحدٌ، فهذه قدرة مطلقة للملك -سبحانه وتعالى-.

{وَإِن كُلٌّ لَمّا} أي: وإن كلٌ إلا {جَميعٌ لَدَينا مُحضَرونَ} كلمة (مُحضَر) أي: سيأتي رغمًا عنه، مثل قول: "عُمِل له محضر" فهذا لكي يأتي ويُحاسَب، أي: سيُحضَر رغمًا عنه ليُحاسب. فأمره لن ينتهي بموته! وكأن معنى الآية {أَلَمْ يَرَوا كَم أَهلَكنا قَبلَهُم مِنَ القُرونِ أَنَّهُم إِلَيهِم لا يَرجِعونَ} أن هذا الإهلاك الدنيوي ليس مانعًا من العقاب الأخروي، أي: سيُهلكون في الدنيا، وسيُحاسبون في الآخرة أيضًا، أي: سيكون هناك عقاب أيضًا {أَلَمْ يَرَوا كَم أَهلَكنا قَبلَهُم مِنَ القُرونِ أَنَّهُم إِلَيهِم لا يَرجِعونَ} فسيرجع ليُحاسب، {وَإِن كُلٌّ لَمّا جَميعٌ لَدَينا مُحضَرونَ} أي: هؤلاء الذين قتلوا مؤمن آل ياسين أُهلِكوا بالصيحة، ويوم القيامة سيُحاسَبون مرة ثانية؛ لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا كذّبوا الرسل وقتلوهم؟ فسيُحاسَبون {وَإِن كُلٌّ لَمّا جَميعٌ لَدَينا مُحضَرونَ}.

ثم شوط طويل من الآيات الكونية للدلالة على أن الفطرة الثابتة في الكون، وعندما يتفكّر الإنسان فيها؛ يعود إلى الله عز وجل {وَآيَةٌ لَهُمُ..}، {وَآيَةٌ لَهُمُ...}، {وَآيَةٌ لَهُمُ...} ثلاث مرات، والكلام في الآيات الكونية.

نحن قلنا سابقًا في مقدمة تفسير سورة النبأ -في بداية جزء عم-، وأيضًا في سورة الأنعام، وسورة فاطر: ((أنَّ الآيات الكونية التي تتضمنها السور؛ يكون لها أغراض: عامة، وخاصة))، الأغراض العامة لذكر الآيات الكونية مثل: قدرة الله المطلقة، والدلالة على البعث، وهيمنة الله عز وجل على كل شيء؛ فهذه هي الدلالات العامة. وهناك دلالات خاصة تتناسب مع سياق الآيات. إذا كان الكلام على إنكار بعث؛ فهذه تكون خاصة بإنكار البعث، وما يستفاد منها من الفوائد والعبر.

مثل: كلامنا في مسألة وجود العذب الفرات، والملح الأجاج؛ كان دلالة على التنوع، بالرغم من أنّ خالقهما واحد، وأن المادة واحدة وهي: (الماء)، إلّا أن الله قادرٌ على أن ينوِّع، فمسألة التنوُّع في سورة (فاطر)؛ فخلق البحر وهو (الملح الأجاج)، والنهر وهو (العذب الفرات) بما فيه من دلالات عامة على قدرة ربنا على الخلق وباقي الأشياء التي ذكرناها في الدلالات العامة، أيضًا فيها دلالة خاصة ناسبت سياق السورة، وهذه قاعدة مهمة جدًا في التعامل مع ذكر الآيات الكونية التي تأتي في وسط سور القرآن.

هنا في سورة يس: جاءت الآيات متناسبة مع المعاني التي نتكلم فيها. أي: مناسبة مع مسألة الحياة والإحياء التي جاءت في سورة يس أكثر من مرة، فذكرت السورة: قدرة ربنا على الإحياء والبعث -الذي يرفضه المشركون-، وأن الله عز وجل يحيي الموتى، وأن الله عز وجل قد يحيي الميت -أي: الكافر-، وكذلك في آخر السورة: {لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا}[يس:٧٠]، وذكرت أعلى صور الحياة: وهي الشهادة في سبيل الله في قوله تعالى: {يَا لَيتَ قَومِي يَعلَمُونَ}، أي: أنّه حيٌ عند الله عز وجل. فإذًا؛ مسألة الحياة ذُكِرت في السورة أكثر من مرة.

وهنا {وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرضُ المَيتَةُ أَحيَيناها}[يس:٣٣]

إذا كنتم تكذبون بالبعث؛ فانظروا إلى الأرض الميتة، من يحييها؟ {فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}[الروم:٥٠] قدرة الله -سبحانه وتعالى- مطلقة في الإحياء. فالذي يكذب بإحياء الموتى هو -في الحقيقة- خائف من الحساب، فهو لا يستبعد القدرة -كما يُظَنّ- لأنّه يرى

بعينيه أعظم من ذلك! الذي يقول: أنّه مستحيل الإحياء بعد الموت، وكيف يعود مرة أخرى بعد أن يُفَتّت العظم، ويصير ترابًا!، مثل: الكافر الذي يستعمل الوسائل الإعلامية في تصوير هذا المشهد؛ للصدّ عن سبيل الله، في قوله تعالى: {قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}[يس:٧٨] فيمسكها بيده، ويُفتّتُها أمام الناس؛ حتى يؤثِّر هذا المشهد في الناس، ويُصَدِّقوه ويقولوا: نعم هذا صحيح، كيف له أن يعود مرةً أخرى بعد أن يصير ترابًا! فمشهد الإحياء معنا في السورة.

فهو لا يُكذب استبعادًا للقدرة؛ لأن قدرة الله -عز وجل- التي يراها بعينه أعظم بكثير، فالله -عز وجل- يقول له: {وَآيَةٌ لَهُمُ} أي: للذين ينكرون البعث، {الأَرضُ الميتَةُ أَحيَيناها} وليس فقط {أَحيَيناها}، بل {وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ}[يس: ٣٣] فضم الله -عز وجل- المِنة إلى الآية، أي: النعمة مع الآية، ليس فقط أحيا الأرض الميتة ولكن أيضًا أخرج منها حَبًا، وهو -الإنسان- يلامس هذه الحقيقة، ويأكل منها، فإن كانت الأرض تموت تمامًا ولن تحيا مرة أخرى؛ كان هو نفسه سيموت! يحيي الله الأرض الميتة لأجله هو، ليأكل، فكيف يؤمن أن الله يحيي الأرض الميتة لأجل أن يأكل ولا يؤمن أنه يحييه مرة أخرى حتى يحاسبه الله -عز وجل-!

{وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} ليس هذا فقط بل {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ} انظر إلى التنوع {مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} ولكي لا يتعب في المياه {وفَجَّرنَا فِيهَا مِنَ العِيوُن * لِيَأكُلُوا مِن ثَمَرِه}[يس:٣٤-٣٥].

آية عجيبة!

كأن الله -سبحانه وتعالى- يقول: فعلت كل هذا لتأكلوا!

سبحان الله، انظر إلى الود، ويقابل الناسُ هذا الود بالإعراض!

ولله المثل الأعلى! حينما تعاتبك أمك وتقول لك: أتيت بكذا وكذا وأعددت هذا الطعام لم لأجل أن تتذوقه، لأجل أن تأكل!

وتقابل كل هذا الود من الله -سبحانه وتعالى وهو الودود- بالإعراض!

الله عز وجل أحيا الأرض الميتة لأجلك؛ لأنه لو كانت الأرض التي لا تُسقى بالماء تموت ولن تحيا مرة تانية مهما سقيتها بالماء؛ لمات الناس! لكن الله يُحيي الأرض الميتة لأجل أن تأكل، وأيضًا ينوع لك فيها! وكان من الممكن أن

يكتفي بالحَب فقط، وحينها سيصبح الإنسان متساويًا مع الأنعام فيأكل من أي شيء، ولكن لم يحدث هذا، بل جعل الله جنات من نخيل وأعناب، ولأجل أن لا يتعب في المياه؛ فجّر له عيونًا، كل هذا لأجل أن يأكُل!

{لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ}[يس:٣٥] قيل: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} أي أنت أيضًا علّمَك وأعطاك الله عقلًا لتعرف كيف تتفنن في صناعة هذه الثمرات، وتتفنن في صناعة أكل مختلف..!

وقيل: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ}: {ما} النافية، بمعنى: ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم، أي: ولن يستطيعوا أن يحيوا الأرض الميتة إلا بقدرة الله. {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} أي: ولم يخلقوه.

أحيانًا يعتقد الإنسان أنه لما يفعل الأسباب يكون هو من فعل ابتداء، هو يضع البذرة في الأرض ويضع بعض الماء ويقول: "هذا شجري!". يجامع الرجل زوجته ويلقي المني ثم يُقدر الله الولد له، يقول: "ابني"، ماذا فعلت أنت؟ هل أنت من خلقته؟ أأنتم تخلقونه؟ أأنتم تزرعونه؟ ليس معنى أنك أنت من وضع البذرة في الطين ووضع عليها بعضا من الماء؛ أنك أنت من خلقها! من الذي خلقها؟ من الذي قدر فيها الحياة؟ من الذي أخرجها؟ من الذي يرعاها؟ من الذي يدبر أمرها؟ من الذي يرزقها؟ هو الله-سبحانه وتعالى! أنت ماذا فعلت؟! {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[الزمر:٦]؟ هو الله.

أحيانًا يُعمى الإنسان بالسبب عن قدرة الله.

فهنا الله عز وجل يقول له: أنت لم تفعل شيئًا. {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} ليس معنى أنك وضعت البذرة في الطين ووضعت عليها بعض الماء؛ أنك أنت من فعلت! لا، أنت لم تفعل! بل هو الله سبحانه وتعالى {أَفَلَا يَشْكُرُونَ}.

ثم قال الله عز وجل -وكأن الكلمة هذه جاءت في الوقت المناسب- {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} كأن الآية تدلك على بما ينبغي أن تقوله، تقول: سبحان الله، سبحان الله..

تأمل؛ يريدك القرآن أن تتفاعل، (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مر بآيةٍ فيها تسبيح؛ سبح، والجنة؛ يسأل، والنار؛ يستعيذ)[٣] ، هذا هو التفاعل مع الآيات. وليس عندما تمر عليها لا تتفاعل معها!

[٣] [عن حذيفة بن اليمان:] صلَّيتُ مع النَّبيِّ ليلةٍ فافتتحَ البقرةَ، فقُلتُ: يركَعُ عندَ المائةِ فمَضى، فقلتُ: يركعُ عند المائتينِ فمضى فقُلتُ: يصلِّي بِها في رَكْعةٍ فمَضى، فافتتحَ النِّساءَ فقرأَها، ثمَّ افتتحَ آلَ عمرانَ فقرَأَها يقرأُ مُترسِّلًا، إذا مرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سألَ، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ، ثمَّ رَكَعَ فقال: سبحانَ ربِّيَ العظيمِ. فكانَ رُكوعُهُ نحوًا مِن قِيامِهِ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فقالَ: سمعَ اللَّهُ لمن حمدَهُ. فكانَ قيامُهُ قريبًا من رُكوعِهِ، ثمَّ سجدَ فجعلَ يقولُ: سُبحانَ ربِّيَ الأعلى. فكانَ سُجودُهُ قريبًا مِن رُكوعِهِ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح النسائي ١٦٦٣ • صحيح

فبعد هذا المشهد تقول: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[يس: ٣٦]. مسألة الأزواج:

تكلم العلماء في قول الله عز وجل في هذه الآية: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ}، وأيضًا في سورة الذاريات: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[الذاريات: ٤٩]، وعن التزاوج في الكون، وأن الله واحد، وأن كل المخلوقات بينها تزاوج، وقالوا كلمة {أزواج} أو {زوجين} لا تكون مع الذكر والأنثى فقط، بل تكون في النبتة الواحدة، بل وفي الذرات. وقالوا: الزوج هو الند أو الشريك أو الذي يكملك في شيء، مثلًا: السماء والأرض، الليل والنهار، الذكر والأنثى، الموجب والسالب، الشمس والقمر... شيء يكمل آخر. وهذا التزاوج إن كان به تضاد لكن يؤتي نفعًا، وأن الله عز وجل قدّر هذا التزاوج. هذا التزاوج يعطي نفعًا، وهذا الاختلاف يؤدي إلى التناسل وبقاء الذرية. في التزاوج يحتاجون إلى بعضهم، وبضدها تتميز الأشياء. أنت تحتاج إلى الليل وتحتاج إلى النهار. ولا يصلح لشيء أن يطغى على الآخر، لا يمكن أن يكون الخلق كلهم ذكور، أو أن الخلق كلهم إناث، أو تبقى الحياة كلها ليل، أو الحياة كلها نهار، أو شمس فقط، أو ليل فقط... أبدًا!

قدّر الله عز وجل هذا التزاوج وأن كُلَ في حاجة، إما في حاجة إلى الشريك أو في حاجة إلى الضد. الله عز وجل هو الواحد الأحد؛ لذلك تأتي لحظة يبقى الله عز وجل هو وحده سبحانه وتعالى، والكل يموت. تأتي لحظة يُميت الله عز وجل كل المخلوقات، ويقول: **{لمن الملك اليوم}؟** هذه اللحظة يُقدِّرُها الله لأن الكل يحتاج إلى الله، والله لا يحتاج إلى أحد، هو حي باقٍ قيوم سبحانه وتعالى. وأي خلق لأجل أن يقوم أو يظهر أو يؤدي وظيفة أو تظهر وظيفته؛ قدَّر الله له مخلوقات معه، تكون متزاوجة معه، فلكي تظهر وظيفة الليل؛ يأتي النهار، ولكي تظهر وظيفة النهار؛ يأتي الليل، ولكي تشعر بقيمة الشمس؛ يأتي القمر، ولكي تشعر بقيمة القمر؛ تأتي الشمس، والأنثى تحتاج إلى الذكر، والذكر يحتاج إلى الأنثى... هذا الضعف، وهذا الاحتياج، وهذا التضاد، وهذا التقابل؛ يجعلك تتأكد أنه يوجد إله واحد سبحانه وتعالى.

فقالوا: التزاوج دليل الوحدانية. والتزاوج يخبرك أن الإنسان فيه نقص، والمخلوقات كلها فيها نقص، وتحتاج إلى شيء آخر. وقد تكلم العلماء في مسألة الاستفادة من الزوجين الموجودة في كل شيء،

وكيف أن الإنسان متوازنًا، لأنه لو طغى شيء على آخر؛ ينهار العالم. وكما قلنا إن كانت الحياة كلها ليل، أو كلها نهار، أو المخلوقات كلها ذكور فقط أو إناث فقط؛ يتوقف العالم ويكون في ركود.

إذًا؛ يجب أن يكون لدى الإنسان توازن، ويعرف ضعفه، ويعرف احتياجه للآخر. لكن الله لا يحتاج إلى أحد.

فكما قلنا؛ سوف تأتي لحظة ليس فيها مخلوق، يميت الله -عز وجل- كل المخلوقات، ويقول: {لمن الملك اليوم} لله سبحانه وتعالى.

يقول: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} الأزواج في النبات، الأزواج في النفوس، الأزواج في {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}! والتضاد؛ مثلما ظهر في الموجب والسالب إلى يوم القيامة. لذلك قال: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[يس: ٣٦]. فمع الوقت يظهر كم أن ظاهرة التزاوج في الكون مهمة لاستمرار الكون، ومهمة لأن الإنسان يستفيد منها.

ثم قال آيات في مسألة المزاوجة ومسألة التضاد: {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾}[يس].

ذكر الله عز وجل لنا آيات بين المتزاوجين، وبين المتضادات، وكيف أن تدبير الله لو لم يكن موجودًا لفسدت الحياة. كيف أن الله قدّر أن يوجد ليل ويوجد نهار، وتوجد شمس ويوجد قمر، وقدر لكل منهم قدر ووظيفة ووقت، كل هذا بتقدير العزيز العليم. فبعد أن قلت {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}، وبعدما تدبرت في الأرض وتدبرت في المكان؛ فتتدبر في الزمان. بعدما تدبرت في الأرض؛ تتدبر في الليل والنهار. فبعدما اكتشفت التزاوج الموجود في النباتات {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ}؛ بدأت ترى في {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} أن موضوع التزاوج أعظم بكثير من مسألة الذكر والأنثى، أو الموجود في النبات والتلقيح، الموضوع أعظم من ذلك.

يقول الله عز وجل: {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} وهذا مشهد الإماتة. والمشهد الأول كان مشهد الحياة { وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا}[يس:٣٣] .

أما المشهد الثاني: مشهد الدنيا مضاءة ثم يحل الليل، {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ} الله عز وجل ينزع النهار من الليل {نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}. انتبه لتعبير {نَسْلَخُ}.

العلماء يقولون: الأصل أن الكون مظلم، وهذه الحقيقة التي اكتشفوها، ولا يوجد مكان ينير إلا أن يبعث الله فيه النور، فإن طلعت الشمس تضيء الدنيا، فالأصل الظلام، فحينما يسلخ الله عز وجل النهار، كأنه يشبه الليل –مثلًا– بشاة والغشاء الذي عليها "فرو الخروف" هو النهار، وهذا السلخ يُظهِر الظلام، لكن بمجرد أن يظهر النور؛ –ربنا لم يقل "نسلخ الظلام"– الظلام يمحق ويذهب. وهذا مثلما تكلمنا في {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}[الإسراء:٨١]، فبمجرد أن يأتي النور؛ يذهب الظلام. فإن كنت تريد الظلام، ليس الحل أن تأتي بظلام! فعندما تريد أن يذهب الظلام الحل أن يأتي النور فقط، ولكي يعود الظلام؛ فالحل أن يذهب النور، وليس أن تأتي بظلام!

وهذه قاعدة مهمة، وكأنه يستفاد منها: ما فعلتموه بقتل الرجل وكأنكم سلختم النور من حولكم! لماذا تُطفئ آخر نور أرسله ربنا لك؟ وتعبير يسلخ أيضًا ذُكر في القرآن في مسألة الانتكاس، { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا}[الأعراف:١٧٥]، لماذا تزيل النور؟ كأن الإنسان عندما يبعد عن النور كأنه ينسلخ، البعد عن النور فيه آلام السلخ التي تشعر بها الشاة –إذا كانت تشعر لأن الشاة تكون ميتة– تخيل لو أن الشاة حية وتسلخ، تخيل أنك حيّ وتبتعد عن النور فكأنك تُسلخ. فربنا إذا كان قدّر وجود الليل هذا المشهد الكوني؛ لاحتياج الإنسان إلى الليل، لماذا تفعل في نفسك ذلك، لماذا تسلخ النور؟ فكأن مشهد قتل مؤمن آل ياسين أشبه بمشهد سلخ النهار بعيدًا عن الليل، فقال الله عز وجل: {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ}[يس: ٣٧]، يُفاجأ أن الدنيا أصبحت مظلمة، بمجرد ذهاب النور أمست الدنيا ليلًا، لم يقل لما نسلخ النهار نعود لوجود الظلام، لا، بل الأصل أن الظلام موجود.

ولو أسقط الإنسان هذا الموضوع على نفسه –لأن الإنسان والعياذ بالله يضلّ– فيكفيه أن يبتعد عن النور. أي لا يلزم لكي يكون الإنسان ضالًا أن يبتعد عن النور ويذهب للظلام، أو يعيش فلا يعمل الطاعات ويعمل بالمعاصي، أو لا يقرأ القرآن ويستمع إلى الفحش من القول...، لا، لا! **فبمجرد البعد عن النور؛ أصبحت في ظلام.** فهناك تناسق بين الإنسان والكون، فلما قال ربنا: {نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} بمجرد أن انسلخ النهار بعيدًا عن الليل، تجد أنه فجأة يظلم الناس، وهذا الذي يحصل معك.

وهو ذات التزاوج الذي قاله الله عز وجل في أول سورة الشمس:

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾..}

تأمل! كل هذا فيه تزاوج! الشمس والقمر، والسماء والأرض، والليل والنهار، ولكن عند ذِكر النفس قال بأن التزاوج بداخلها: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ }[الشمس] ، دسَّ: أي غطى، فالله عز وجل يقول أنه لكي تنجو النفس يجب أن تنمو وتُزكَّى، ولكي تضيع النفس يكفي فقط أن تبعد عن النور، بمعنى أنه عندما يبتعد إنسان عن سماع القرآن وعن حضور الدروس وعن مواطن الوعظ، ولو لم يفعل معاصي بعد، فهو بالفعل قد ضَلَّ بهذا، هكذا أصبح مظلمًا والعياذ بالله، بهذا هو يَنتكس، ويَنسلخ.

{وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ} كما قلنا؛ أن الآيات الكونية التي تأتي تتضمنها السور لها دلالات عامة ولها دلالات خاصة، بحسب مناسبة السياق.

{وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ}، فبُعد الإنسان عن الصلاة في المسجد وعن القرآن وعن مواطن الوعظ، يفاجأ أنه أصبح مظلمًا في داخله، يفاجأ أن أخلاقه تغيرت، يفاجأ {فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} بالفعل ستصبح مُظلمًا! الثبات على الدين ليس برجاحة العقل أو قوة العضلات، بل باتباع الوحي. قال الله عز وجل: {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ}[الإسراء:٧٤] كيف أثبُت؟ قال له: {أَقِمِ الصَّلَاةَ}[الإسراء:٧٨]، وقال: { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ}[الإسراء:٧٩]، بالصلاة والقرآن تَثبُت. بدون صلاة وقرآن ل ن تَثبُت.

{فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ}، ثم قال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}[يس:٣٨] سبحان الله! هيمنة ربنا سبحانه وتعالى على المخلوقات، هذه الشمس التي تضيء للإنسان يقول الله عز جل أنها: {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}.

جمهور المفسرين وكثير من العلماء قال: أن كلمة "مستقر" إما مستقر مكاني، أو مستقر زماني.

المستقر المكاني: تحت العرش، كما جاء في البخاري ومسلم لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: (أتدري أين تبيت هذه؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: تبيت ساجدةً تحت العرش، قال الله عز وجل: {والشمس تجري لمستقر لها})[٤] . وكأن الإنسان لن يستقر ويشعر بالقرار إلا بالسجود.

[٤] [عن أبي ذر الغفاري:] سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ عن قَوْلِهِ: {والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها} [يس: ٣٨]، قالَ: مُسْتَقَرُّها تَحْتَ العَرْشِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٤٣٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٤٣٣)، ومسلم (١٥٩)

{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} وهو السجود تحت العرش. وبالتعبير ذاته قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: (وجعلت قرة عيني في **الصلاة**)[٥] ، وإذا كانت الشمس تحت العرش؛ فإن أقرب اللحظات (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو **ساجد**)[٦] ، فالشمس تجري لمستقر! تأمل الكائنات والمخلوقات! {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} وهي في جريانها إلى ذلك المستقر {ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} فذلك الجري بتقديرٍ من الله. هذا المخلوق الضخم وهو يجري؛ هل يَخرج عن المسار أو يصطدم بشيء؟! لا! هذا تدبير من الله، وتقدير، بَقدَر.

لذلك قال الله عز وجل: تقدير مَن؟ {تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} العزيز الذي لا يُغالَب.

الشمس ممنوع عنها أن تخرج عن مسارها، ويأمرها الله ألا تخرج عن مسارها، وتذهب كل يوم فتسجد تحت العرش ثم تستأذن فيُؤذن لها، حتى يأتي يوم تستأذن فلا يُؤذن لها! ويقال لها: (ارجعي من حيث أتيتي) ، فتشرق من المغرب في آخر الزمان.

وقالوا أن هذا هو المستقر الزماني؛ وهو يوم القيامة. أي تظل تجري إلى يوم القيامة، ولن تتوقف عن الجري إلا حينما يأتي يوم القيامة {وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}[القيامة: ٩].

{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

إذًا؛ الكون حتى لا يخرج عن مساره، فهناك **عِزَّة** من الله –عز وجل– فيَمنَعه أن يخرج، وهناك **علم** وتقدير من الله عز وجل. إن اقتربت المسافة بين الشمس والأرض فإن الأرض تشتعل، ولو بعدت قليلًا تتجمد الأرض، مَن الذي ضبط هذه المسافات؟ وكذلك المسافات بين القمر والأرض، وبين الكواكب، مَن؟!

قلنا –وانتبه هنا– أن القرآن يصنع نقلة في التفكير! لا يكلمك الله عن مشكلة في الكهرباء التي تنقطع، ولا مشكلة المياه التي انقطعت! الله عز وجل يُكلمك عن أشياء مهما فعل الإنسان فلا يَقدر فيها على شيء! هو مجرد مراقب ينتظر! يَظل يراقِب بلا قدرة على فعل أي شيء! مثلما تكلمنا في آخر سورة فاطر: {وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ}[فاطر: ٤١]! الله عز وجل يُكلمك عن مشكلة إن حدثت؛ ماذا ستفعل أنت؟!

---

[٥] [عن أنس بن مالك:] جُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي في الصلاةِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ١٨٠٩ • صحيح • أخرجه مطولاً النسائي (٣٩٣٩) واللفظ له، وأحمد (١٣٠٧٩)

[٦] [عن أبي هريرة:] أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعاءَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٤٨٢ • [صحيح]

إذا خرجت الشمس عن مسارها أو خرجت الأرض عن مسارها؛ ماذا ستفعل؟! أنت دورك هو المراقب فقط! وحين يقولون بأن الجاذبية الأرضية ستقل قليلًا؛ أنت فقط تراقب الأحداث! وإن حدث بركان أو فيضان؛ أنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا! وهذه قدرة الله المطلقة، وقدّر ذلك، وأنت تعيش ذرة في هذا الكون كله! {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[الرعد:١٣]! { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} وهناك أناس يجادلون في الله!

قدّر الله ذلك بعزته وبعلمه.

أيضًا؛ في كلمة {وَالشَّمْسُ تَجْرِي} والشمس التي تضيء للناس حتى استقرت؛ أشبه بمشهد مؤمن آل ياسين وهو قد جاء يجري، وهو الشمس التي جاءت لتضيء للناس، {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ}[يس:٢٠] ولم يستقر مؤمن آل يس إلا في الجنة، إلا بالشهادة، ولم يشعر باستقرار إلا عندما بَلَّغ قومه. هذا هو المؤمن العامل لدين الله؛ يسعى ليُنير للناس، ولا يشعر باستقرار إلا حينما يبلغ الناس، لا يطمئن ولا يهدأ باله إلا عندما يبلغ الناس دين الله سبحانه وتعالى. {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} انظر لهذا المشهد الجميل {ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

قلنا؛ {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} ذلك الجري أو ذلك الاستقرار بتقدير من العزيز العليم، فلكي تظل الشمس ماضية في مسارها لا بد أن تُمنع من الخروج عنه، ولا بد من علم إلى أين ستجري، ومتى، وماذا ستفعل؟ بتقديرات. مَن الذي ضبط هذه المسافات؟ {هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}[الانسان: ١] كان الإنسان غير موجود، فمَن الذي ضبط ذلك؟! ثم يأتي جاهل ويقول: "لا أحد"! سبحان الله! انظر إلى الشمس في هذا المكان تحديدًا، والقمر في هذا المكان تحديدًا! وإلى الحكم الرهيبة! التي يكون دور الإنسان فيها استكشافًا وليس إيجادًا. غالب ما يصل إليه الإنسان هو استكشاف لما أودعه الله في هذا الكون من حكم وأسرار سبحانه وتعالى، {وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا}!

{ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾}[يس].

ثم قال: {وَالْقَمَرَ} أي والقمر أيضًا قدَّره الله {قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ}، والاستقرار والمنازل تكررت، وكأن القمر أيضًا يَمر بمنازل معينة {حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} وهنا مشهد من مشاهد الأفُول.

تكلمنا سابقًا عن مشهد الإحياء {الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا}[يس:٣٣]، ومشهد الإماتة أو مشهد ذهاب النور والظلام. أما هنا مشهد من مشاهد الأفول، بعدما يكتمل القمر ويكون بدرًا، يظل ينتقل في منازل بتدرج –وهذه سنة الحياة في التدرج– حتى يعود إلى مشهد البداية كالعرجون القديم. ومشهد (العذق) الخاص بالتمر عندما ييبس، يقولون أنه يحدث له ثلاثة أمور: يصير دقيقًا وينحني ويصفر. لاحظ المشهد مثل مشهد النخلة التي فيه التمر (العذق)، وعندما يترك فترة طويلة ويسقط التمر الذي فيه وييبس، يقولون أنه ينحني ويكون دقيق رفيع ويصفر، وهذا هو مشهد القمر في النهاية بعد أن اكتمل.

مشاهد الأفول، هذه هي الدنيا، كل شيء لا بد أن يَمر بلحظات اكتمال ثم لحظات نقصان ثم تأفُل! ولا يبقى إلا الله سبحانه تعالى. هذه الدورة بالاكتمال والنقص يقدّرها الله سبحانه وتعالى. وحينما رأى سيدنا إبراهيم –عليه السلام– هذا المشهد، عندما اكتمل القمر؛ أَفَلَ، قال: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}[الأنفال:٧٦]. الله لا يأفُل أبدًا، لا يغيب، لا ينقص، سبحانه وتعالى. {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن مشهد التناسق بين المخلوقات، وما ينبغي أيضًا أن يكون عليه الدعاة. مثلما يكون هناك تناسق وترتيب بين الشمس والقمر، أيضًا لا بد أن يكون الدعاة كذلك {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}، فهذا المثال يوضح ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة من ترتيب، وأن اختلافهم اختلاف تنوع لا تضاد. هذا الاختلاف بين الشمس والقمر يعطي ثمرة واستفادة، لا يتناطحان ولا يتصارعان. وكذلك لا بد أن يكون الاختلاف بين الدعاة، قال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ}، لا تصطدم به، ولا تتعدى عليه، بل كلٌ له مساره، كلٌ في فلكٍ يسبحون.

{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} يوجد نوع من الإيلاج والتداخل وليس التناطح التام، ليس ليلًا كاملًا أو نهارًا كاملًا، {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أحيانًا يكون النهار طويلًا، وأحيانًا يكون الليل طويلًا. وهذا التناسق والترتيب والتناغم بتدبير من الله، وبتسخير منه عز وجل.

الله عز وجل أراد من البشر المختلفين أن يكونوا كذلك بترتيب منهم، كان يمكن أن يسخّر الله عز وجل الناس، ويجبرهم على ذلك، لكن هذا الأمر وُكّل إلى الإنسان، مثلما قال عز وجل في سورة الفرقان: {وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا}[النمل:٦١] جعل حاجزًا كونيًا بين البحر والنهر، فكان من الممكن أن يجعل الله عز وجل حواجز ظاهرة واضحة بين الحق والباطل –كما في سورة الفرقان–، لكن أراد أن نفعل نحن ذلك، أن نصنع نحن هذا الحاجز! فهذا ابتلاء وحكمةً ومسؤولية نُحاسب عليها أمام الله عز وجل.

{ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[يس:٤٠]

مَن الذي قدَّر الطريق أو الفلك الذي تسير فيه الشمس، ومَن الذي رتب لها ألا تخرج عن هذا المسار، وكذلك القمر والأرض وغيرهما من الكواكب والأقمار تمشي في مسار محدد؟، آلاف من السنوات مرت ولم يحدث اصطدام بينها، فهذا تنسيق وترتيب وتدبير من الملك سبحانه وتعالى. ونحن أيضًا لا بد أن يكون بيننا ترتيب. {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} والسبح: هو التحرك والتقلب بسهولة ويسر. فكذلك العاملين لدين الله يجب يكون بينهم ترتيب، كلٌ في فلكه الخاص؛ يسبح فيه وينطلق ويجري لنصرة هذا الدين.

ثم ذكر الله عز وجل ختام الآيات الثلاث {وَآيَةٌ لَّهُمُ}.

وبعد ذلك تعود الآيات مرة أخرى لمناقشة المشركين {وإِذَا قِيلَ لَهُم}.

قال الله عز وجل: {وَآيَةٌ لَّهُمُ} ثلاث مرات: مشهد الإحياء، ثم مشهد الإظلام أو الموت والأفول. ثم مشهد المنة.

فإن حدث اضطراب معين في الكون فهو بتدبير من الله عز وجل. وما يحدث الآن من كون الشمس لا تدرك القمر، والليل لا يسبق النهار فهو أيضًا بتدبير وتقدير من الله عز وجل.

ولكن إن قدَّر الله –عز وجل– أنه يحدث فيضان أو بركان؛ مَن الذي سيُنقذ الناس في هذه اللحظة؟ رب العالمين سبحانه وتعالى، أما البشر فلا يستطيعون فعل شيء.

فالله –عز وجل– ذكر لنا نموذج الطوفان الذي أرسله على قوم نوح، فقال: {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}[يس: ٤١]، أي لما حدث الطوفان لم يُنقذكم إلا الله، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئًا. وحين قال –ابن سيدنا نوح عليه السلام–: {سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ}[هود:٤٣]. فقال المفسرون في قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} أن الذرية تأتي بمعنى الآباء –وهذا

ذكره ابن كثير وغيره–، أي: حملنا أجدادهم، وهم سيدنا نوح ومن كانوا معه، لأن كل الموجودون من البشرية الآن هم مِن نَسل الذين أُنقذوا مع نوح عليه السلام، لأن الباقين أهلكهم الله عز وجل، لذلك يطلقون على سيدنا نوح عليه السلام "آدم الثاني".

وقيل؛ {حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} أي: نسلهم، أي أن الله عز وجل حملهم حتى تبقى الذرية، لأنه لو لم يفعل ذلك؛ لماتت الذرية ولم تكن تبقى. فكأنها إشارة {حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} أي حملناهم لتخرجوا أنتم، ولولا أن الله حملهم لما خرجتم، ولكنتم هلكتم!

{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}[يس:٤١] أيضًا هذا منة وفضل من الله عز وجل يمتن على عباده بهذه النعمة.

{فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} كان مشحونًا أي كان ثقيلًا وكأنه مُتكدس بالناس، وكان الحيوانات { مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}[هود:٤٠] وكان هذا التزاوج حتى يبقى النسل.

{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} هذا الفلك المشحون كان ظاهريًا سيغرق، {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} ماذا تفعل سفينة مملوءة بالناس وسط هذا الموج الذي كالجبال؟ ولكن الله عز وجل حفظهم، لذلك قال: {ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ} وليس بقوتنا ولا بقوة السفينة، بل بتوفيق من الله، وبالاستعانة بالله، {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} ولم نُنقَذ إلا لأنه غفور {إن ربي لغفور رحيم}[هود:٤١].

وهنا يقول عز وجل: {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} ثم علّمكم ماذا تفعلون في البحر وفي البر أيضًا {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}[يس:٤٢]،

قيل: {مِّن مِّثْلِهِ} أي مثلما يحملكم في البحر؛ يحملكم في البر -مثل: ركوب الجِمال-. وقيل {مِّن مِّثْلِهِ}: أي عَلمَكم كيف تصنعون سفينة مثلها تحملكم في البحر {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}. إن أخذنا المعنى الثاني {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} أي أن الله عز وجل علمهم كيف يصنعوا سفينة، فهل عندما يصنعون سفينة فلن يغرقوا أبدًا؟! لا! {وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ}، مثل: سفينة تايتانيك الشهيرة؛ قالوا عنها الكثير وتحدوا بها العالم، أو يصنعوا الصواريخ ويتحدوا بها العالم، ولكن في النهاية يهلكها الله عز وجل إذا أراد. مهما أوتي الإنسان من قوة؛ قد يهلكه الله عز وجل إذا أراد.

فبعدما قال الله عز وجل: {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} أي حتى وإن صنعوا سفينة مثل سفينة نوح، وقاسوا على غرارها سفينة ضخمة في البحر؛ قال: {وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ} أي لن يجدوا أحد يستغيثون به، ولا أحد ينادون عليه، ولا أحد ينقذهم {وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ} لن ينفعهم أحد، وهذا مثل آية: {إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ}[يس:٢٣] لن تنفع شفاعة ولا كلام ولا فعل!

{وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا}[يس:٤٣] أي قد يتركهم الله عز وجل {إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ}[يس:٤٤]، بعض العلماء قال: أي: إلا إذا أراد أن يَرحم المؤمنين ويَترك الكافرين يُمتعون إلى حين، فالرحمة للمؤمنين والمتاع للكافرين.

وقيل: {إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا} أي: يرحمهم الله عز وجل فترة من الفترات لعلهم يتوبون، ويمتعهم إلى حين. {إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ} أي: لن يُنقذوا من هذا المكان إلا برحمة من الله عز وجل.

إذًا؛ يقدر الله عز وجل أقدارًا على الإنسان، والإنسان يشعر أنه لا يستطيع فعل شيء، كسفينة في وسط الموج، هذا المشهد يُذكره بالله كثيرًا، أو مشهد إنسان في مرض، وآخر واقفٌ ينظر للمريض لا يستطيع أن يفعل له أي شيء، فيُقدِّر الله عز وجل هذه اللحظات كي يتبين الإنسان ضعفه، ويعرف أنه ضعيف، وهذا زلزال قادم نحوه وهو لا يستطيع فعل شيء، وهذا بركان يعرف أنه سينفجر ولا يستطيع فعل شيء، أو خسوف يحدث للقمر فلا يفعل شيئًا إلا أن يُصلي، أو مرض يعرف أنه قد يموت بسببه ولكن ليس بيده شيء. سبحان الله!

رأيت مشهدًا لأحد المرضى قال له الأطباء: أمامك أيام قليلة وتموت، ومات بالفعل بعدها، ولكنه كان يعرف أنه سيموت، وكل الأطباء حوله لم يستطيعوا أن يفعلوا له شيء! فقد يشاء الله أن ينقذهم وقد يتركهم يهلكون. هذا بيان لِضعف الإنسان، مهما أوتي من علم ومهما أوتي من قوة؛ هذه اللحظات ستظل موجودة، تنادي على فطرة الإنسان: أنت ضعيف، أنت تحتاج إلى الله عز وجل. لحظات المرض، لحظات ما قبل الموت، لحظات الغرق، لحظات الضعف، لحظات الهدم، هذه اللحظات لا بد أن تظل تنادي على فطرة الإنسان: انتبه أنت ضعيف، أنت تحتاج إلى الله عز وجل، لا بد أن تلجأ إليه {وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ}[يس:٤٣-٤٤] .

بعد هذا الشوط المتنوع في الآيات الكونية: مشهد الإحياء، ومشهد الظلام، ومشهد المنة، ومشهد الإنقاذ؛ هذه المشاهد على بما فيها من دلالة على القدرة العامة، وما فيها من دلالات خاصة تتناسب مع السورة، بعد ذلك يعود النقاش مرة أخرى مع الكفار {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ...}. نُكمل بإذن الله عز وجل المرة القادمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا.